مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

حوادث دمشق اليومية

١١٥٤ - ١١٧٥ هـ
١٧٤١ - ١٧٦٢ م

جمعها : الشيخ أحمد البديري الحلاق
نقحها : الشيخ محمد سعيد القاسمي

وقف على تحقيقها ونشرها
دكتور أحمد عزت عبد الكريم
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

القاهرة
١٩٥٩

159638

مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

حوادث دمشق اليومية

١١٥٤ – ١١٧٥ هـ
١٧٤١ – ١٧٦٢ م

جمعها : الشيخ أحمد البديري الحلاق
نقحها : الشيخ محمد سعيد القاسمي

وقف على تحقيقها ونشرها
دكتور أحمد عزت عبد الكريم
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

الطبعـــة الأولى

١٩٥٩

مطبعة لجنة البيان العربي

٨ شارع مصطفى كامل - الظاهر ت ٥٧٠٧٩

مع تحيات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

إلى دمشـــق

المدينة العربيـــة الخالدة

أهدى هذا الكتاب فى حقبة من تاريخها

ذكرى السنوات الجميلة المثمرة التى أمضيتها بها

(١٩٤٦ — ١٩٤٩)

مقدمة

كانت سورية أول قطر عربي دخله الأتراك العثمانيون فاتحين ، في حركة التوسع العثماني الكبير في العالم العربي ، الذي بدأه السلطان سليم الأول (سنة ١٥١٦) وأتمه من بعده ابنه السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) . فعلى أثر وقعة مرج دابق شمالي حلب (سنة ١٥١٦) وهزيمة الجيش المملوكي بقيادة السلطان قنصوه الغوري استولى العثمانيون على بلاد الشام جميعها ، وتقدموا فدخلوا مصر ، وزالت السلطنة المملوكية وحلت محلها ولايات عثمانية في القاهرة ودمشق وحلب وطرابلس وصيدا[1] .

حقاً إن هـذه الولايات خضعت للون واحد في الحكم ، وقامت فيها حياة المجتمع على نسق يكاد يكون واحداً ، وسادتها حياة ثقافية وروحية واحدة ، ولكن كان لكل من هذه الحواضر شخصيتها الخاصة ، التي استمدتها من ماضيها العريق ، ومن مقومات الحياة المدنية الخاصة التي خضعت لها في العصر العثماني ، سواء كانت حكومية أو وطنية فكان لكل منها حكومتها الخاصة ، وقواتها العسكرية الخاصة ولها مشكلاتها الخاصة ، حتى اعتاد أهل كل حاضرة أن يعيشوا ويفكروا (منفصلين) عن سواهم ، معتزين بمشخصاتهم ، حريصين عليها ، حتى قام الحكم الوطني فوضع أمام المواطنين جميعاً مثلا أعلى ، وفي ظل الكفاح المشترك والمصلحة المشتركة ذابت الوحدات الإقليمية الصغرى في الوحدة القومية الكبرى .

وقد بقي الحكم العثماني في سورية قائماً حتى الحرب العالمية الأولى ، أي أنه دام فيها نحو أربعة قرون . ويمكن أن نقسم تاريخ سورية في هذا العهد العثماني الطويل إلى الأقسام الآتية :

١ — العهد العثماني الأول من ١٥١٦ إلى ١٨٣١ ، أي من وقت دخول السلطان

---

(١) أنشئت باشوية (أوولاية) صيدا في سنة ١٦٦٠ ، قد دعا إلى إنشائها ما حدث من اضطراب في جبل لبنان في القرن السابع عشر ، بقيام الأمير فخر الدين المعني الثاني بحركته الشهيرة ضد الدولة وما تلا ذلك من أحداث ، فأنشأت الدولة باشوية في صيدا للإشراف على شئون الجبل ، ثم انتقل مقر الولاية إلى عكا ثم إلى بيروت .

انظر : أحمد عزت عبد الكريم : التقسيم الإداري لسورية في العصر العثماني . (حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس . المجلد الأول ١٩٥١) .

سليم الأول الأقطار السورية إلى دخول القوات المصرية هـذه الأقطار وضمها إلى مصر فى حكم واحد ، هو حكم محمد على .

وتتميز هذه المرحلة بسطحية الحكم العثمانى وشيوع روح المحافظة والجمود والتشتت فى أداة الحكم وفى تنظيم المجتمع .

٢ — عهد الحكم المصرى فى الشام ١٨٣١ — ١٨٤٠ ، وكان هذا الحكم امتداداً للحكم العثمانى ، على اعتبار أن مصر وسورية بقيتا جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، ولو أن مصر خرجت عليها وحاربتها . إلا أن هذا العهد تميز بالحكومة المركزية القوية ، وإخضاع — أو محاولة إخضاع — العصبيات والطوائف المحلية والأخذ بسياسة التجديد ، والحكم المصرى — من هذه الوجهة — مهّد للعهد التالى فى سورية .

٣ — عهد التنظيمات وما يلحق به من حكم السلطان عبد الحميد ، ثم حكم الاتحاديين حتى الحرب العظمى الأولى وانهيار الامبراطورية العثمانية . (أى من ١٨٤٠ إلى ١٩١٨) .

ويتميز هذا العهد باصطناع العثمانيين فلسفة جديدة فى الحكم ، قوامها تشديد قبضة الحكومة على ولاياتها وتوثيق ربطها بالحكومة المركزية والأخذ بسياسة التجديد وتدبير الأدوات لتحقيق هذه الخطط .

* * *

وإن الباحث فى التاريخ السورى الحديث — وهو ليس إلا تاريخها فى العهد العثمانى — لتروعه حقيقة صارخة : وهى أن هذا العهد لم يحظ من المؤرخين بالعناية التى تتفق وأهميته ، وقد اقتطع من تاريخ سورية أربعة قرون . وفى رأينا أن هذا الإهمال يرجع — فى الدرجة الأولى — إلى بهاء العصر السابق للفتح العثمانى ، وهو العصر الذى اصطلح على تسميته بالعصر الإسلامى ، وانشغال الناس بأحداث العصر التالى لانسلاخ سورية من الحكم العثمانى وما صحبه من أحداث الكفاح الوطنى ضد الانتداب الفرنسى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم يقم فى هذا العصر العثمانى — على طوله — وخاصة فى العهد الأول منه من المؤرخين العالقة مثل من حفل بهم العصر السابق ، واستنام الناس إلى أن العصر العثمانى كان متّسماً بالجمود والركود فأهملوه ، إلا أن وصفه بالجمود والركود لا يبرر هذا الإهمال .

ومن جهة ثالثة يرجع هـذا الإهمال — فى رأينا — إلى صعوبة جمع المادة التاريخية التى يقام عليها تاريخ العصر العثمانى وخاصة فى عهده الأول ، ويرجع ذلك إلى عدم توافر المصادر الأصلية التى ينبغى أن تكون فى متناول المؤرخ لهذا العصر . حقاً إن بين أيدينا معلومات غزيرة مما كتبه بعض الرحالة الأجانب ، وقد يكون أجدرها بالتقدير رحلة ڤولنى إلى مصر والشام بين سنتى ١٧٨٣ و ١٧٨٥ . ولكن الرحالة الأجانب فى بلادنا لا يعرفون كل شىء ، وإذا عرفوا أشياء شاب كتاباتهم الهوى أو النفاق أو الجهل ، أو غير ذلك مما يشوه المادة التاريخية .

أما المادة الأصلية التى يتكون منها تاريخ سورية — أو تاريخ أى بلد آخر — فينبغى أن تستمد من مصدرين أساسيين :

الأول : الوثائق الرسمية من فرمانات السلاطين والباشوات وأوامر رجال الحكم وسجلات الأجناد ودفاتر الأموال والأراضى والمراسلات التى تبودلت بين هيئات الحكم فى الولاية والحكومة المركزية ، ورسائل القناصل وأوراق المحاكم وسجلات الأوقاف .. الخ .

ولكن هذه الوثائق الرسمية المتعلقة بالتاريخ السورى الحديث وخاصة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ليس إليها حتى اليوم من سبيل ، على الأقل فى سورية ، وإذا كان بعضها لا يزال موجودا ، فإن الجهود لإخراجها — بله تنسيقها وإعدادها للباحثين — لم تبذل بعد[1] . وكأن هذه القرون الأربعة التى مرت بالحكم العثمانى فى سورية قد بدأت وانتهت دون أن تخلف من تلك الأوراق والدفاتر شيئا ، مع أن هذا يتنافى وما نعرفه عن أساليب الحكومة العثمانية فى ولاياتها . وليس من شك فى أنه إذا أريد إعادة كتابة تاريخ سورية الحديث كتابة علمية مضبوطة محققة ، لا تقف عند (العموميات) وإنما تتعمق (الجزئيات) ، ليس من شك فى أن الوقت قد حان للقيام (بحملة) علمية منظمة ، تستهدف البحث عن هذه الوثائق الرسمية والكشف

---

(١) إن الدراسات التى قام بها الأستاذ برنارد لويس فى دور الوثائق التركية باستامبول تفصح عن أهمية الوثائق العثمانية فى كتابة تاريخ البلاد العربية .

انظر Bernard Lewis : The Ottoman Archives as a Source for the History of the Arab Lands (J. R, A.S. Oct. 1951, pp. 139-155).

—Studies in the Ottoman Archives (B. S.O.A.S,1954 XVI-3 pp. 469- 501).

عنها وتيسير سبل البحث فيها أنى وُجدت[1] ، على أن يسبق هذا بطبيعة الحال إعداد الباحثين الذين سيضطلعون بمثل هذا العمل الإعداد الصحيح .

والمصدر الثانى : ما كتبه المعاصرون من أبناء البلاد أنفسهم فى تاريخ بلادهم أو وصف مجتمعاتهم أو الترجمة لأعلامهم . وفى رأينا أن هذه الكتابات لاتقل أهمية وخطراً عن الوثائق الرسمية ، فهى وثائق (أهلية) إن صحّ هذا التعبير ، وهى من هذه الوجهة قد تكون أجلّ من الوثائق الرسمية شأناً ، لأنها أصدق تصويرا لجوانب من حياة المجتمعات قد لا تتناولها أوراق الحكومة .

ونتيجة لقيام الوحدات الإقليمية فى الحواضر السورية وقع على عاتق أبناء كل حاضرة مسئولية الاهتمام بتدوين تاريخهم ، فعلماء حلب كتبوا فى تاريخ حلب وترجموا لأعلامها ، وعلماء دمشق كتبوا فى تاريخ مدينتهم وترجموا لأعلامها ولا نعرف أن عالما من دمشق أو من حلب أو من طرابلس تصدّى — قبل القرن التاسع عشر — لكتابة تاريخ سورية كلها بمختلف وحداتها الإدارية ، حتى إن عالماً فاضلاً كالمرحوم الأستاذ محمد كرد على عندما تصدى فى عصر متأخر لكتابة تاريخ بلاده أوخططها قصر همه على (خطط الشام) أى دمشق ، أما فى العصر العثمانى الأول — بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر — فلا نكاد نجد من المراجع المنشورة عن تاريخ الشام إلا النزر اليسير . عندنا حقا ما كتبه ميخائيل الدمشقى عن حوادث الشام ولبنان[2] وأكثره متعلق بتاريخ لبنان ، وما كتبه المحبى[3] والمرادى[4] فى تراجم أعلام القرنين الحادى عشر (السابع عشر الميلادى) والثانى عشر (الثامن

---

(١) هذا باستثناء بعض أوراق القناصل الأوربيين التى استخدمها بعض المؤرخين الأجانب لكتابة جوانب من تاريخ سورية ، وخاصة الجوانب الاقتصادية مثل :

Charles Roux : Les échelles de Syrie et de Palestine au XVIII èsiècle

Masson : Histoire du commerce au Levant au XVII e Siècle.

ومثله عن القرن الثامن عشر .

ومثل بعض الوثائق الإيطالية التى استخدمها الدكتور حسن عثمان (فى بحث له غير منشور) والأب بولس قرآنى (فى بحث منشور) عن الأمير فخر الدين المعنى الثانى .

أما وثائق القرن التاسع عشر فقد لقيت حظا أكثر من العناية ، مثل وثائق الشام فى العهد المصرى التى جمعها ونشرها الدكتور أسد رستم والمحررات السياسية التى نشرها فريد الخازن .

(٢) نشره الخورى قسطنطين الباشا . حريصا ١٩٣٠ .

(٣) خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر . القاهرة ١٢٨٤ هـ .

(٤) سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر . القاهرة ١٣٠١ هـ .

عشر الميلادى) وما كتبه المقّار والقارى عن وزراء دمشق وقضاتها[1] ، وأكثره لا يعدو أن يكون قوائم بأسماء الباشوات الذين تعاقبوا على حكم دمشق فى العصر العثمانى ، مع نبذة وجيزة عما حدث فى عهد كل منهم . ولكن هذه الكتابات — على ما فيها من مادة ثمينة — لا تكفى وحدها لإنشاء تاريخ دقيق مفصل للشام فى العصر العثمانى ، ومن هنا تجىء الدعوة التى وجهناها لإعداد (حملة) علمية منظمة للكشف عن المصادر الأصلية للتاريخ السورى — بل العربى عامة — فى العصر العثمانى ، وخاصة فى العهد الأول منه — حتى القرن التاسع عشر ، وهو العهد الذى نال نصيبا أكبر من إهمال المؤرخين العرب المحدثين . ونرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع الذى نتقدم به اليوم لجلاء جانب من تاريخ سورية فى القرن الثامن عشر مقدمة لهذه (الحملة) التى ندعو إليها ، ولبنة فى البناء التاريخى الذى ندعو لإقامته .

* * *

والكتاب الذى ننشره اليوم ألفه أحد أبناء الشعب الدمشقى ، فى القرن الثامن عشر ، وهو « أحمد البديرى الحلاق الدمشقى » ، وقد دون فيه « حوادث دمشق اليومية » فى خلال إحدى وعشرين سنة من ذلك القرن ، وهى الواقعة بين سنتى ١١٥٤ و ١١٧٥ هجرية (١٧٤١ — ١٧٦٢ ميلادية)[2] .

لم يقصد البديرى بكتابه أن يدوّن تاريخا لبلده، فمثل هذا العمل الكبير كان فوق ما تحتمله ثقافة الرجل ، بل كان فوق إدراك أكثر علماء ذلك الزمان ، ولكنه شهد أحداثا انفعل بها ، فانكب على أوراقه يسجل ما شهد وما سمع يوما بعد آخر ، دفعته إلى ذلك مجرد الرغبة فى التسجيل خشية النسيان ، أو هواية الكتابة أو التعبير عن مشاعره والتنفيس عن كامن عواطفه وتسجيل رأيه فى الناس وفى الحوادث، أو الرغبة فى إفادة من يأتى بعده ، على نحو ما عرف أو سمع عن كتابات من سبقه من الكتاب والمؤرخين. لم يقصد البديرى بمؤلفه — إن كان قد قصد حقا أن يضع مؤلفا واضح الحدود والمعالم — أن يتقدم به إلى وزير أو يتملق به كبيرا ، فجاء كتابه —

---

(١) نشرها الدكتور صلاح الدين المنجد فى مجلد واحد بعنوان : « ولاة دمشق فى العهد العثمانى » دمشق ١٩٤٩ .

(٢) يلاحظ أن البديرى مؤلف الكتاب ذكر أنه جمع الحوادث التى جرت بدمشق من سنة ١١٥٤ إلى سنة ١١٧٦ ، ولكن القاسمى منقح الكتاب فطن إلى أن المؤلف زاد سنة ونبّه إلى ذلك فى أول الكتاب وفى آخره .

أو مذكراته — صورة صادقة لقطاع من حياة الناس فى دمشق فى أواسط القرن الثامن عشر .

وهذه الصورة التى قدمها لنا البديرى عن دمشق فى ذلك الوقت لا تكاد تختلف فى خطوطها العريضة عن صور الحياة فى غير دمشق من الحواضر العربية ، لا تكاد تختلف عما نقرؤه فى تاريخ الغزى عن حلب أو فى تاريخ الجبرتى عن القاهرة أو فى مطالع السعود عن بغداد ، لا تكاد صور الحياة فى هذه الولايات العربية تختلف إحداها عن الأخرى ، لأن المقوّمات التى قامت عليها حياة المجتمعات فيها تكاد تكون واحدة ، والأنظمة التى وضعها السلاطين العثمانيون لحكمها كانت واحدة .

قلنا إن هذه الصور تتشابه فى عمومياتها ، وإن اختلفت جزئياتها باختلاف ظروف ولاية أو حاضرة عن أخرى ، من جهة ، وبتفاوت المستوى الثقافى لأولئك الكتاب الذين قدموا لنا هذه الصور من جهة أخرى .

وبعد ... فأين الحلاق أحمد البديرى من معاصره[1] العالم المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى ؟ ؟

* * *

لا نعلم — على وجه التحقيق — السنة التى ولد فيها البديرى ولا السنة التى انتقل فيها إلى جوار ربّه ، ذلك لأن البديرى فى كتابه — كما وصلَ إلينا بعد أن تناولته يد المنقح بالتهذيب — لم يتحدث كثيراً عن نفسه وعن أسرته . ومضى البديرى فى الحياة مغموراً ، لم يحفل به كتاب الطبقات أو الأعلام ، ولم يعدّه المرادى من « أعيان » القرن الثامن عشر الذين احتفل بتدوين سيرهم فى سلك دُرره .

وكل ما نعرفه عن السنوات التى عاشها البديرى هى تلك الفترة التى دوّن هو حوادثها بدمشق ، وهى الفترة الممتدة بين سنتى ١١٥٤ و ١١٧٥ هـ (١٧٤١ — ١٧٦٢ م) ولكنا لا ندرى هل كانت هذه السنوات — وقد بلغت إحدى وعشرين سنة — الجانب الأطول من عمره أو الأقصر ، وإن كان من الطبيعى أن البديرى لم يبدأ فى تدوين حوادث دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ إلا بعد أن استوفى نضجه واتسعت دائرة معارفه الذين كانوا يمدّونه بالأنباء ، وكبرت تجاربه ، وخبر الحياة حلوها ومرّها ، فأقبل على التأليف والكتابة ونظم المواليا .

---

(١) ولد الجبرتى فى سنه ١١٦٧ ، وكان البديرى حينذاك رجلا مكتمل الرجولة عاكفاً على كتابة يومياته .

وقد ذكره منقح الكتاب فى بدايته باسم « شهاب الدين أحمد بن بدير البدرى الشهير بالحلاق » ، وربما وجد المنقح هذا الاسم مدوّنا على الكتاب فنقله كما هو . وقد ينصرف الذهن إلى أن « الحلاق » كانت للبدرى كنية ، وليست حرفة اشتغل بها ، وقد تكون حرفة أبيه أو جدّه من قبل فاشتهر بها . قد ينصرف الذهن إلى شىء من هذا ، لولا أن البدرى نفسه ذكر فى عدة مناسبات من كتابه اشتغاله بالحلاقة .

الأولى : فى ختام الموالياً الذى نظمه فى سنة ١١٥٤ «فى حق من أظهر الكذب والأراجيف من أهل دمشق »[١] .

والثانية : حين ذكر أستاذه « فى صنعة الحلاقة » الحاج أحمد الحلاق بن حشيش ذكره معتزا به إذ « كان حلاقا لفرد زمانه وقطب أوانه الشيخ عبد الغنى النابلسى قُدّس سره » و « ما وضع يده على مريض إذا رمد وقرأ ما تيسّر إلا شفاه الله وعافاه » ، وقال صبيّه وتلميذه البدرى « ومنه حصل لى الفتوح والبركة »[٢] .

والثالثة : حين ذكر — فى موضع آخر — رجلا كان صاحب الفضل فى تعليمه وتثقيفه ، حتى وصفه بالأب والوالد والأستاذ والمربى ، وقال إنه فريد عصره ووحيد أوانه ، ولا غرو . . فقد « كان يحكى سيرة الظاهر وعنترة وسيف ونوادر غريبة فى التركى والعربى ، ومع ذلك فهو أمى لا يقرأ ولا يكتب .. وهو بحر خضم لا يخاض »[٣] .

والمناسبة الرابعة التى تحدث فيها البدرى عن اشتغاله بالحلاقة حين ذكر وفاة « معتقد أهل الشام على الإطلاق الشيخ يوسف الخلوتى » وقال معتزا « ومما منّ الله به علىّ أن حلقت رأسه واغتنمت دعاءه »[٤] .

وقد حرص البدرى الحلاق على أن يسجل وفاة رؤساء الطوائف أو نقباء الحرف أو الأصناف ، إلى جانب من ذكرهم من العلماء وأرباب الطرق والمتصوفة وأصحاب الكرامات ، كرئيس الحلاقين ، ورئيس الدباغين ، ونقيب النقباء على الحرف والصنايع والطرق وغيرهم من مشايخ الحرف .

---

(١) ص ١١ — ١٥ من هذا الكتاب .
(٢) ص ٢٤ — ٢٥
(٣) ص ٣٤
(٤) ٦٢ — ٦٣ ص

وقد كان لطوائف الحرف مكانها فى المجتمع الحضرى لذلك العهد، فقد كانت أداة قوية من أدوات التنظيم الاجتماعى ، إذ كانت كل طائفة تنتظم المشتغلين بالحرفة ، ولها نظامها وكيانها وتقاليدها . ولها رئيسها ، وكانت الطائفة أداة لتكتيل أعضائها وحمايتهم فى وقت عزّت فيه حماية السلطات الحاكمة ، كما كانت أداة أمن ورعاية لأبنائها ، وكانت — بما تملك من وسائل التجميع والتكتيل — قادرة على العمل فى المدينة ، خصوصاً إذا لاحظنا أن كثيرا من أفرادها والمنتمين إليها كانوا — باندماجهم أو انتمائهم إلى سلك الانكشارية المحلية — يحملون السلاح ، فكانوا لذلك أقدر من غيرهم من سكان المدينة على الذود عن أنفسهم وحماية مصالحهم . هذا إلى أنهم لم يكونوا محرومين من ذلك القدر وذلك النوع من الثقافة الذى عرفه أوساط الناس لذلك العهد ، وهى ثقافة تلقوها من المتصوفة وأرباب الطرق. والارتباط بين طوائف الحرف وطرق الصوفية كان قويا[1]، وقد زوّد رجال الطرق الصوفية أرباب الحرف وسائر الناس بثقافة روحية أخلاقية ، وإن شابتها فى كثير من الأحيان الخزعبلات والخرافات — وقد أطلقوا عليها فى ذلك العصر اسم الكرامات — إلا أنها كان لها أثرها الطيب فى تربية الناس وتهذيبهم والترفيه عنهم ، إذ رققت بعض الشىء الحياة الخشنة التى كانوا يحيونها .

ولطائفة الحلاقين من بين طوائف الحرف مكانتها فى المجتمع الدمشقى ، فهم طائفة لا يستغنى عنهم ، يلجأ الناس إليهم لحلاقة الرأس — فأكثر الناس فى ذلك الوقت كانوا يطلقون لحاهم ويرون العار كل العار فى حلاقتها — كما يلتمس الناس عندهم الطب والعلاج وختان أطفالهم ، وكان أكثر حلاقى ذلك العصر يعمل (بالبركة) ، فهو قد يحلق لكبير فيتقاضاه أجراً كبيراً ، وقد يحلق لطالب علم فلا يتقاضاه شيئاً . ونحن نذكر أياما لم يكن فيها للحلاق أجر معلوم ، بل كان يأخذ شاكراً كل ما يقدم إليه من أجر كثيرا كان أم قليلا .

وقد كتب منقح الكتاب الشيخ محمد سعيد القاسمى عن (الحلاق) فى القاموس الذى وضعه عن الصناعات الشامية[2] ، ولا غرو فقد كان جدّه — هو الآخر — حلاقا . ولكنه كتب عن الحلاق والحلاقة فى أواخر القرن التاسع عشر حين أقبل

---

(١) يبدو أنه كان لكل حرفة ولكل طريقة نقيب ، ثم كان لهؤلاء النقباء نقيب عليهم، فقد ذكر البديرى وفاة « نقيب النقباء على الحرف والصنايع والطرق » .

(٢) بدائع الغرف فى الصناعات والحرف . مخطوط بمكتبة أسرة القاسمى ص ٦٧ .

الحلاقون على « تحسين الدكاكين ووضع المرايا الكبار والقطع الجميلة والتصاوير والقازات المثمنة (أى الثمينة) ، وغير ذلك من آلات التحسين والعدة البديعة من الأمواس الطيبة والمقصات من الأجناس العالية والغالية » ، وأصبحوا « مرفهين فى ملبسهم وهيئتهم مع نظافة المحل والبشاكير واستعمال الروائح الفاخرة بحيث لو مرّ الشخص على إحدى دكاكينهم لاشتهى أن يحلق ولو كان حالقاً ... » . ومضى القاسمى يصف عمل فريق آخر من الحلاقين ، ممن « يعلق عدته فى جدار حائط » ويحلق للفلاحين والفقراء ، ووصف حلاقتهم « بالذبّاحة » من « كثرة الشروخ » التى يصيبون بها رأس زبون بموسى قد علاه الصدأ فأصبح « كالمنشار » !

ولكن القاسمى أغفل ناحية هامة من حياة الحلاقين فى ذلك الوقت ، وهى أنهم — بما عرف عنهم من اختلاطهم بالناس من مختلف الطبقات والطوائف ومن إقبالهم على التحدث مع زبائنهم — والحديث ذو شجون — كانوا يسمعون كثيرا ويروون كثيرا ، فكانوا — فى وقت انعدمت فيه وسائل رواية الأخبار من صحف أو إذاعة ... الخ خير رواة للأخبار .

قلنا إن البديرى لم يتحدث كثيرا عن نفسه وعن أسرته ، فلم نعرف إلا النزر اليسير الذى ذكره عن نفسه فى ثنايا كتابه ، قال إنه ولد فى محلة القبيبات ، وكانت بمثابة ضاحية لدمشق ، تقع إلى الجنوب الغربى منها فى طريق الحج[1] . وكانت محله عامرة بالأضرحة والمساجد ، ومن قبابها اتخذت اسمها . فنشأ البديرى فى بيئة متدينة ، نشأ مبجلا للعلم والعلماء ، والمتصوفة وأرباب الكرامات ، وأخذ هو نفسه العهد وسار فى الطريق .

ولم يذكر البديرى شيئا عن أبيه ، وأكبر الظن أنه كان حلاقا مثله ، فنشّأ ابنه على احتراف مهنته ، وربما أورثه أدواته ودكانه ، فكان الإرث الوحيد الذى خلفه له . وبعد وفاة والده انتقل البديرى والأسرة إلى محلة أخرى ، هى محلة التعديل ، أى من خارج المدينة إلى قلبها . ويبدو أن والده توفى قبل أن يشرع هو فى تدوين « حوادث دمشق اليومية » لأنه لم يشر إلى وفاته ، كما فعل عند وفاة أمه .

ويبدو أن أمه كانت قوية الأثر فى تكوينه الروحى والثقافى ، ذكرها بالخير فى مناسبة موتها سنة ١١٥٥ — أى فى العام التالى لشروعه فى تدوين (الحوادث) —

---

(١) انظر الخريطتين اللتين أوردناهما فى آخر الكتاب . والقبيبات لم تعد معروفه اليوم .

« كانت من القانتات العابدات تصلى نوافل الليل ولها أوراد »[1] . ونحن نعرف أن البديرى كانت له — هو الآخر — أوراد وأدعيات وتسابيح .

ولم يتحدث البديرى عن أحد من أفراد أسرته ، إلا بنتاً له — أو جارية على حدّ تعبيره ، رزق بها فى سنة ١١٥٥ ، قبل وفاة أمه ببضعة أشهر ، وتفاءل بمولدها ، إذ كان وأهله فى ضيق ، فسماها صالحة « لعل بقدومها يحصل لنا الفتح والفاتحة . . جعلها الله تعالى فالحة »[2] . وفى موضع آخر ذكر ابنا له هومصطفى ، ويبدو أنه كان يعمل على تنشئته نشأة دينية كما نشأ هو نفسه ، فكان يصطحبه لزيارة الأضرحة ، ويجعله يتلو كلام الله معه وهما فى الطريق[3] .

وقد ولد البديرى فى أسرة متوسطة رقيقة الحال وإن كانت لا تميل إلى الفقر . كان لهم منزل فى محلة القبيبات ، حيث مسقط رأسه وأيام طفولته ، فلما تحولوا إلى محلة التعديل عقب وفاة أبيه اشتروا لهم منزلا جديداً ، فأصبحوا فى « ضيق » ، حتى إذا ولدت له بنت دعا ربه أن يجعل بقدومها « الفتح والفاتحة » ولسنا نعرف هل استجاب الله لدعائه ، ولكنا نعرف أنه ظل طوال السنوات التى دوّن حوادثها يشكو شدة الغلاء وارتفاع أثمان المواد الغذائية من خبز وكعك وعسل ولحم وسمن وجبن ، ومواد الوقود من فحم وحطب ، فكان يسجل أثمانها مرة أو أكثر من مرة فى كل عام ، حتى ثمن العلق ، وهو شىء له أهميته عند حلاقى تلك الأيام . وكان ارتفاع أثمان الحاجيات أو خفضها عند البديرى — بل عند الناس كافة — مقياساً لعدالة الحكم أو فساده ، ذلك لأنه ردّ الغلاء إلى جشع الحاكمين وتكالبهم على تخزين المؤن وإهمال القاضى التفتيش على الأسواق وإنقاص الحكومة قيمة العملة . وقد حرص على تسجيل (المظاهرات) التى كان يقوم بها العامة فى دمشق للشكوى من الغلاء ، حتى لقد كانوا يواجهون الباشا ويغلظون له القول ويتصدّون للأعيان والعلماء بالسبّ والإهانة ويتهمونهم بأنهم يعينون الحكام على الشعب ، بل لقد هجموا على القاضى وضربوا رجاله واضطروه إلى الهرب فوق أسطح المنازل .

قلنا إن البديرى نشأ فى بيئة متدينة ، هى محلة القبيبات ، وفى بيت تتلى فيه

---

(١) انظر ص ٣٠ من هذا الكتاب . وقد أسهب البديرى — فى النسخة الأصلية من الكتاب — فى الحديث عن أمه وأورادها ، ولكن منقح الكتاب حذف هذا الإسهاب .

(٢) ص ١٨

(٣) ص ١٦٨

الأوراد ، وهكذا نهل البديرى من تلك الثقافة الصوفية التى كانت شائعة فى أيامه ، حتى إذا ضرب فى الشـــباب انتمى إلى إحدى الطرق الصوفية التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت فى البلاد العربية جميعاً وهى الطريقة السعدية[1] . فقد كتب كثيراً باحترام وتوقير عن شيخ هذه الطريقة « شيخنا » الشيخ إبراهيم الجباوى ، وعما كان يتمتع به من مكانة فى المجتمع الدمشقى حاكمين ومحكومين ، بل فى بلاط السلطان نفسه ، وكثيراً ماتوسط فى النزاعات التى كانت تجرى بين طوائف العسكر[2] .

وبلغ من تعلق البديرى بهذه الطريقة الصوفية أنه أصهر للأسرة الجباوية . ولـكنه لم يذكر كنه هذا الصِّهر .

وللبديرى ـــ شأن أرباب الطرق جميعاً ـــ أوراد وتسابيح ، أخذ بعضها عن أمه ، وأخذ بعضها الآخر عن شيوخه . وقد سجل البديرى كثيراً من هذه الأوراد فى كتابه ، ثم جاء المنقح الشيخ محمد سعيد القاسمى فرأى ـــ سامحه الله ـــ أنها مما « يمل سامعها ويسأم قارؤها » فحذفها[3] ، فاختفت من نسخ الـكتاب كما وصلت إلينا ، ولم يبق منها إلا دعاء واحدا أخذه البديرى عن شيخ قراء الشام « وخاصيته لهجوم المخاوف فى السفر والحضر »[4]

وقد ذكر البديرى طائفة من الشيوخ الذين عرفهم وأخذ عنهم ، وقال إنهم شيوخه وأساتذته ، فنوّه بذكرهم وأشاد بفضلهم ، ولا يستبعد أن يكون البديرى قد اغتنم شيئا من الفراغ فتردد على حلقات العلم فى مسجد بنى أمية وغيره من المساجد وتلقى عنهم شيئا من علم ذلك الوقت ، فنحن نعرف أن الصلة كانت قوية بين طوائف العلماء والمتصوفة ، وغدا أكثر علماء ذلك العصر يجمعون بين العلم والتصوف ، بل إن منهم من أضاف إلى هذا وذاك حرفة يحترفها من صناعة أو تجارة ، لأنه يرى طلب الرزق من هذا السبيل أجدى عليه وأكرم من رزق (الوظيفة) ، ومنهم من بدأ حياته صانعا ثم تحول هو أو أبناؤه أو أحفاده إلى طلب العلم .

وقد جعلت هذه التربية الدينية الصوفية من البديرى رجلا متدينا حريصا على أحكام الدين ، غيورا على مكارم الأخلاق ، مبجلا للعلماء وأرباب الـكرامات ، فملأ كتابه بنقد

---

(١) انظر عنها فى الـكتاب ص٩١ (حاشيه ١)

(٢) ص١١٧

(٣) ص٣

(٤) ص ٥٢ ـــ ٥٣

المجتمع الدمشقي على عهده لما شاع فيه من فساد . ويبدو أن اكتظاظ المدينة بمختلف طوائف العسكر وانفلات النظام بينهم ، قد أشـــاع في المدينة جوّاً من الفساد الخلقي ، فـكثرت بها « بنات الخطا » وتبرجن وجاهرن بالمعصية في الشوارع « ومعهم الدالاتية والفساق ولا أحد يتـكلم بقيل وقال ، ولا أمر بمعروف ولا نهى عن المنـكر ، والصالح في هم وكرب والفاجر الطالح يتقلب في لذيذ النعم . اللهم فرّج آمين »(١) ، حتى إن فتاة منهن تدعى سلمون « افتتن بها غالب النساء ، حتى صاروا ينسبون إليها كل شيء ، فيقولون : هذا المتاع سلموني وهذا الثوب سلموني وهكذا » ، وأصدر المفتي فتوى بقتلها فقتلت ، وأصدر الباشا أمرا بأن كل من وجد بنتا من بنات الخطا فليقتلها ودمها مهدور(٢) .

بل لقد تجرأن ، فأقامت إحداهن مولداً احتفالا بشفاء غلام من الترك عشقته ودعت « شلـكات البلد وهن المومسات ، ومشين في أسواق الشام وهن حاملات الشموع والقناديل والمباخر ، وهن يغنين ويصفقن بالـكفوف ويدققن بالدفوف ، والناس وقوف صفوف تتفرج عليهن وهن مكشوفات الوجوه سادلات الشعور ، وما ثم نا كر لهذا المنكر ، والصالحون يرفعون أصواتهم ويقولون الله أكبر »(٣).

وخوطب الباشا في ذلك ، وعرض عليه أن ينفين أو يجمعن في مكان ، ولـكنه أبى ، خشية أن يدعون عليه في الليل والنهار(٤)! ثم فضّـل الباشا أن يرتب على كل واحدة منهم عشرة قروش في الشهر ، وجعل عليهن صوباشياً أي جنديا(٥) .

هذا الجو الملىء بالفساد كان مما ضاق به البديري أشد الضيق، وكثيراً مارفع يديه شا كياً ، ناعياً على الحـكام إهمالهم . كما دفعته روح التدين إلى الغيرة على السادات أوالأشراف ، وكثيرا ما كانو هدفا لعدوان العسكر ، فـكانو يردّون العدوان بمثله ، وكثيرا ماذهب دمهم هدرا، ويصرخ البديري : فانظروا يامسلمين إلى هذا الإنصاف (يقصد عدم الإنصاف) ، وقولوا يا خفيّ الألطاف نجنا مما نخاف »(٦) .

ودفعته تربيته الصوفية إلى الإيمان بالـكرامات والتنويه بأصحابها(٧) .

---

(١) ص٩٢ — ٩٣

(٢) ٥٧ .

(٣) ص ١١٢

(٤) ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٥) ص ١٣٤

(٦) ص ٣٢ ، ص ١٢٢ ، ١٣٨ ، ١٥٤ ، ١٦٥ ، ١٨٣ .

(٧) ص ١١٢ .

والبديرى — إلى جانب ثقافته الدينية الصوفية — أديب رقيق الشعور ، عرف أدباء عصره ، وعلى رأسهم شاعر الشام وأديبها الكبير فى القرن الثانى عشر الشيخ عبدالرحمن البهلول ، تلميذ الصوفى الكبير الشيخ عبدالغنى النابلسى وصفيّه ومادحه فى قصيدة طويلة ، حتى دعاه النابلسى (شيخ الأدب فى الشام)[1] . وقد نقل لنا البديرى فى كتابه طائفة من شعر البهلول ، وذكر نبأ وفاته فى سنة ١١٦٣[2] .

والبديرى نفسه كان شاعرا ، وكان شاعرا شعبيا ، نظم المواليا فى أغراض مختلفة ، منها ما نظمه « فى حق من أظهر الكذب والأراجيف » من أهل الشام فى سنة ١١٥٤ ، وتساءل « هم الملاعين صاروا يعلموا بالغيب » ؟![3] . ومنها ما نظمه عندما حارب أسعد باشا العظم جند الانكشارية المحلية وتتبع رؤوسهم (الزرباوات) أى الأشقياء بالقتل والتشريد ، فتشفى فيهم البديرى وتساءل : أين « الزلاقة » التى كانوا يتباهون ويتظاهرون بها « ديك الزلاقة مضت يا حيفها يا حيف »![4] ، ومنها ما نظمه عندما فتك أسعد باشا العظم بفتحى أفندى دفترى الشام « بعد أن طالت دولته وعظمت عليه من الله نعمته .. وهو يتجاهر بالمظالم ولا يبالى من دعوة مظلوم » ، فنظم البديرى مواليا مطلعه :

ياما فعل فتحى لما صار دفتردار .·. غرّه زمانه وسعده حول داره دار[5]

ونظم البديرى المواليا فى المناسبات الخاصة ، خرج يوما فى نزهة (أوسيران فى تعبير أهل الشام) إلى ناحية تطل على المرجة ، وقضى يومه فى سرور وانبساط ، حتى جادت قريحته بموال وصف فيه يومه :

مضى لنـــا يوم مثله ما سبق يا خال .·. فى مرجة الشام ما تشوفون موضع خال[6]

* * *

ولكن كتاب « حوادث دمشق اليومية » ليس للبديرى وحده ، فالبديرى قد جمع مادة الكتاب وكتبها بأسلوبه الذى تشيع فيه العامية ، ثم ظل الكتاب محفوظاً ، حتى وقع لأحد العلماء الدمشقيين فى القرن التاسع عشر ، وأعجب به ، فأقبل عليه وهو الشيخ محمد سعيد القاسمى .

---

(١) ص ٦
(٢) ص ١٣٩
(٣) ص ١٢ — ١٥
(٤) ص ٧٠ — ٧١
(٥) ص ٧٩
(٦) ص ١٤٠

ويتناقل أحفاد القاسمى اليوم روايات مختلفة[1] عن الطريقة التى وصل بها كتاب البديرى إلى يد جدّهم الشيخ محمد سعيد . قيل إن الشيخ أراد يوما أن يبتاع شيئا من عطار ، فوضع له العطار ما باعه فى ورقة مكتوبة ، ولما عاد الشيخ إلى بيته فتح الورقة وقرأ ما فيها — وكان الشيخ طلعة يتعشق القراءة — فأدرك أنها جزء من مخطوط تاريخى ، فعاد فورا إلى العطار واستطاع أن يحصل منه على جميع الأوراق الباقية عنده من الكراسة ، حتى اجتمع له مخطوط البديرى «حوادث دمشق اليومية» .

ولكن أعضاء آخرين من الأسرة يروون رواية أخرى ترجح الرواية الأولى : قالوا[2] إن مخطوط البديرى كان محفوظا فى مكتبة الشيخ محمد المنير أحد علماء دمشق فى القرن الماضى ، وكانت له مكتبة قيمة حافلة بالكتب المخطوطة والمطبوعة . وبعد وفاة صاحبها — فى أواخر القرن التاسع عشر — عرضها ولده للبيع ، وكانت العادة حينذاك أنه حينما يراد بيع مكتبة ما أن تعرض فى الجامع الأموى ، وعرضت مكتبة الشيخ وحضر جمع غفير من العلماء وهواة الكتب وتجارها ، وكان ممن حضر الشيخ طاهر الجزائرى وصديقه الشيخ محمد سعيد القاسمى وولده جمال الدين .

فلما عرضت الكتب كان « حوادث دمشق اليومية » من بينها ، فلم يكترث به أحد ، فعرض بثمن بخس ، ولكن لما اطلع عليه الشيخ طاهر عرف أهميته ، فعزم على شرائه . ولاحظ أحد الحاضرين المضاربين اهتمام الشيخ بالكتاب فزاد عليه ، والشيخ مصمم على شرائه إلى أن زاد ثمنه من عشرة قروش إلى ثلاثمائة قرش ، وهذا مبلغ له قدره فى تلك الأيام . فقال أحد الحاضرين المنصفين لمن بالغ فى زيادة الثمن للمضاربة : هذه زيادة ضرر ! لأن الشيخ طاهر لابد له من شراء الكتاب مهما بلغ ثمنه . وكانت للشيخ مكانة بين الناس ، فتركوا له الكتاب ، وكان رحمه الله شديد الحرص على اقتناء الكتب النادرة والمحافظة عليها .

ثم استعار الكتاب الشيخ محمد سعيد القاسمى من صديقه الشيخ طاهر الجزائرى وقرأه ، فأعجب به ، إذ رآه قد اشتمل على صور من حياة دمشق عفّى عليها الزمان.

---

(١) نقل لى هذه الروايات الصديق الأستاذ أبو الفرج العش محافظ المتحف الوطنى بدمشق نقلا عن بعض أفراد أسرة القاسمى بدمشق .

(٢) صاحب هذه الرواية هو السيد محمد سعيد القاسمى القيم الآن على المكتبة القاسمية الموقوفة على الأسرة ، وقد اعتمد فى روايته على الشيخ حامد التقى تلميذ الشيخ محمد سعيد القاسمى وملازم ولده جمال الدين ونسيب الأسرة أيضا .